التعليق المختصر

على القصيدة النونية

المسماة بالكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

للعلامة ابن قيم الجوزية

رحمه الله

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن فوزان العبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

الجزء الأول

أشرف على طبعه وإخراجه

عبد السلام بن عبد الله السليمان

وتَحَيَّـــزَنَّ إليهِـــمُ لا غيـــرُهُـــمْ
لتكـونَ منصـوراً لـدىٰ الـرحمٰـنِ[١]
فتقـولُ هـذا القَـدْرُ قـد أعيـا علـىٰ
أهـــلِ الكـــلامِ وقـــادَهُ أصـــلانِ
إحـــداهمـــا هـــل فعلُـــهُ مفعـــولُـــهُ
أو غيـــرُهُ فهُمـــا لهُـــمْ قـــولانِ[٢]
والقـــائلـــون بـــأنَّـــهُ هـــو عينُـــه
فـرُّوا مـن الأوصـاف بـالحِـدْثـانِ

= بالكتاب والسنة لأن الكتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وما جاء عن الرسول ﷺ فإنه ممن (لا ينطق عن الهوىٰ. إن هو إلا وحي يوحىٰ)، لكن الشأن في أنك لا بد أن تفهم الكتاب والسنة، لأنه ليس كل من يرد بالكتاب والسنة يكون قد فهم الكتاب والسنة، وأهل السنة «هم عسكر القرآن والإيمان» أي: هم الجيش الذي لا يُهزم، إذا تسلَّحوا بالقرآن والسنة فلا يمكن أن يُهزموا أبداً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٧٣] وقال: ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

(١) لا ترد عليهم بالمنطق أو بعلم الكلام أو بالفلسفة، لأنهم يتقنون هذه الأشياء أكثر منك، ولأنها باطل ليس فيها شيءٌ من الحق، وإنّما هي زبد، فلا ترد عليهم بغير القرآن والسنة أبداً إلا من باب الإلزام لهم.

(٢) أي: هناك فرقٌ بين الفعل والمفعول، لأن الفعل معنىً قائم بالفاعل، وأمّا المفعول فهو شيءٌ خارجٌ عن الفاعل، فإذا قُلت: فلانٌ كاتب، فالكتابة وصفٌ قائمٌ بالكاتب، أمّا المكتوب فهو شيءٌ خارجٌ عن الكاتب.

صدقَ الإمامُ فكلُّ حيٍّ فهو فَعْـ
ـعَالٌ وذا في غايةِ التِّبيانِ[١]
إلاَّ إذا كانَ ثَمَّ موانعٌ
مِن آفةٍ أو قاسرِ الحيوانِ
والربُّ ليس لفعلِه من مانعٍ
ما شاءَ كانَ بقدرةِ الدَّيّانِ[٢]
ومَشيَةُ الرَّحمٰنِ لازِمَةٌ لَهُ
وكذاكَ قُدْرَةُ رَبِّنا الرَّحمٰنِ

---

(١) أي أن الإمام عثمان بن سعيد الدارمي قال في رده علىٰ المرِّيسي: إن كل حي فإنّه يكون فاعلاً لما يشاء، فالله جلّ وعلا يوصف بالحياة أزلاً وأبداً، فكما لا تفارقه الحياة سبحانه وتعالىٰ، فإنه لا تفارقه الأفعال، فالحي لا بد أن يفعل، فالفعل ملازمٌ له، أما الميت فليس له فعل، فالله جلّ وعلا يوصف بالحياة أزلاً وأبداً، فيلزم من هذا أن يوصف بالأفعال أزلاً وأبداً، لا بداية لأفعاله سبحانه وتعالىٰ ولا نهاية، كما أنّه لا بداية لحياته سبحانه وتعالىٰ فالله لم يزل حياً، إذاً لم يزل فعّالاً، هذا ردٌّ علىٰ الذين يقولون: إنّ أفعال الله لها بداية لئلا يلزم التسلسل في الماضي.

(٢) قد يكون الشيء حَيّاً لكنه لا يستطيع أن يفعل لمانعٍ يمنعُه، هذا في المخلوقين فهم فيهم حياة، لكن قد لا يستطيعون بعض الأفعال لمانع، لكن لو زال هذا المانع لصار يفعل، أمّا اللهُ جلّ وعلا فإنّ أفعاله لا يعتريها موانع أبداً، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

كمال الله سبب لفعاله والعبد فعاله سبب لكماله

وكمالُهُ سببُ الفعالِ وخَلْقُهُ
أفعالَهُمْ سببُ الكمالِ الثاني[١]
أوَ ما فِعالُ الربِّ عينُ كمالِهِ
أفذاك ممتنعٌ على المَنّانِ
أزلاً إلىٰ أن صار فيما لم يزلْ
متمكناً والفعلُ ذو إمكانِ[٢]
تاللهِ قَدْ ضلَّتْ عُقولُ القومِ إذْ
قالوا بهذا القَولِ ذي البُطلانِ

---

(١) اللهُ جلّ وعلا له الكمال المطلق، وهذا يقتضي أنّه لا حدَّ لأفعاله سبحانه، ولا بداية لها ولا نهاية، هذا يقتضيه كمال الرب، لأننا لو قلنا: إنّ أفعالَه لها بداية للزم أن يكون في وقت فاقداً للكمال، لأنّ عدم الفعل نقص وإمكان الفعل كمال، وكمال الله ليس له بداية فكذلك أفعاله ليس لها بداية.

(٢) هذا ردٌّ علىٰ الذين يمنعون قدم أفعال الرب جلّ وعلا بأنّه يلزم علىٰ هذا وصف الله بالنقص في المدة التي كان فيها ممتنعاً عليه الفعل حسب زعمهم، وأيضاً: إذا كانت أفعاله ممتنعة في البداية فما الذي جعلها ممكنة فيما بعد؟ كيف تكون في وقت ممتنعة ثمّ تكون في وقت ممكنة؟ فالممتنع لا يتحول إلىٰ ممكن لذاته، فدلَّ علىٰ أنّ أفعال الله كمال، وكمال الله ليس له بداية فيلزم من هذا أن أفعالَه ليس لها بداية.